آراء وأضداد

ماسينيون : المجاهد المرابط

في صباح اليوم الرابع من تشرين الثاني (نوفمبر) نعت محطات الانباء الى العالم موت الاستاذ المستشرق لويس ماسينيون صاحب المؤلفات والمقالات العديدة في تاريخ الفكر الاسلامي ، ورجل المواقف العنيدة الصاخبة في وجه كل ما كان يظنه ظلما وعدوانا .

ولد في ٢٥ تموز (يوليو) ١٨٨٣ في محلة نوجان - سور - مارن من اقليم السين في فرنسا من اب نبغ في فنّ النقش ينتمي الى حلقة من اصحاب الجاه ورجال الفكر ، في مقدمهم الاديب الفرنسي هويسمانس والاب ده فوكو اللذان اثرا على الفتى لويس في توجيهه الروحي ، قبل ان يتصل بالذين لم يلبثوا ان اصبحوا اساتذته في الاستشراق ، سلفان - لفي الفرنسي وغولدزيهر المجري وسوك - هورغرينج الهولندي . وبعد ان انهى دروسه العالية في باريس انتقل الى معهد الابحاث الشرقية الفرنسي في القاهرة ليعدّ رسالته في الدكتوراه ، وخرج منه مدرسا للتاريخ الفلسفة في جامعة القاهرة . وكان يعالج الى جانب تلك المهمة مواضيع شتى في مقالات تتوزعها الصحف والمجلات ، وهي تسفر منذ ذلك العهد الباكر عن الطابع الذي اصطبغ به انتاجه الفكري كله ، وهو طابع تتنازعه ميزتان بارزتان : الاهتمام بالابحاث التي من شأنها ان توقظ الروح وتنبهها الى حياتها الصحيحة الباطنة ، فتتفتح الى غرضها الروحاني لتدركه بالتعاطف الحي النابض ، فيحولها اليه في حين انها تحاول ان تحوله اليها . ومن الناحية الثانية الاقبال بالامعان والتأني ، وبغاية ما تقتضيه الوضعية العلمية ، على الواقع الانساني في دقائق وضعه الاجتماعي والسياسي ، فيحلله بالعقل الواعي المفعم ، تتخلله العاطفة المحتقنة ، فيبرز نتاجه وكأنه القنبلة التي تكاد تتصدع وتنفجر ، وطالما حدث لها ان تصدعت وانفجرت . ذلك لانه كان يجمع في شخصيته الجبارة بين العلم والعمل ، فلا يسعه ان يبقى بينه وبين نفسه هكذا مع النظر الصرف المجرد منفصلا عن الحياة التي يحيط بها بعين قلبه ، والتي كانت تستحثه استحثاثا الى ان يقبل بروحه الى معالجة مشاكلها مع كل ما توفر لديه عنها من معرفة وكل ما حصل عليها من اطلاع .

وان ننس لن ننسى ، في هذا الصدد ، تلك المواقف التي اتخذها من وطنه ومن بعض ابناء قومه ، فيما يختص بالعالم العربي والاسلامي ، في اثناء تلك المرحلة المؤلمة التي كان يجتازها هذا العالم للوصول الى تحقيق تحرره واستقلاله . ووقف ماسينيون ذلك الموقف مطمئنا الى معرفته للعالم العربي والاسلامي وحاجاته ، مقتنعا بما كانت تفرض عليه تلك المعرفة من حزم واقدام ، من تحزب له وجهاد في سبيله .

وكانت تلك المعرفة عميقة واسعة حقا ، تتناول موضوعها في مرافقه الدينية والاجتماعية والسياسية ، وهي كما نعلم نواح قضت الظروف التاريخية ان تكون مشتبكة متداخلة بعضها ببعض . ولقد ساعدته على تلك المعرفة تنقلاته المترددة بين البلدان

العربية كلها شرقها وغربها واقاماتـــه الطويلة في عواصم تلـــك البلدان ولا سيا القاهرة وبغداد ودمشق وبيروت ، بله مـــا قضاه من زمن في الجزائر والمغرب ، وهـــو بين كل ذلك منصت صاغ ، متنبه متيقظ الى كل سانحة وبارحة . ثم يقبل على تدوين ما جمع ويذيع للناس ما استخلص منه واستنبط ، فيجامعات الشرق العربي واديته، وخاصة في مراكزه الثقافية العلمية في باريس من الكوليج ده فرانس ومعهد الدراسات الاسلامية وغيرهما من المؤسسات المختصة بالابحاث العلميـــة والتاريخية . وخيرالدليل على ذلك النشاط الفكري ما خلفه لنا من دراسات ومقالات في مختلف المجلات والصحف ، ولا سيا في مجلة « العالم الاسلامي » التي اصبح مديرها المسؤول قبل ان ينشأ هو بنفسه « مجلة الدراسات الاسلامية » التي جاءت خير الخلف لخير السلف . هذا عدا ما جمعه لنا من معلومات في هذا الصدد في تلك المجلدات الضخمة الاربعـــة التي انفرد هو وحده بوضعها واخرجها تحت عنوان « دليل العالم الاسلامي » ، فيه يجد الباحث كل ما يتشوق اليه من معرفة بما تنطوي عليه اوضاع البلدان الاسلامية في كل مرافق حياتها بلدا بلدا ومدينة مدينة .

الا ان الناحيـــة الدينية هي التي استمالته اول الامر وعليها ركز انتباهه واهتمامه بنوع خاص . وجميعـــنا يذكر ، من هذا القبيل ، الدراسات الضخمة التي خلفها المستشرق في الحلاج الاستاذ الاعظم في الاخلاص عند المتصوفين . وناهيك هنا بالاستعداد والتحضير اللذين لجأ اليهما ليمهد لنفسه التعاطف مع روح ابي منصور « المتجلببة بالنار »، من اقامة طويلة في بغداد الى تأملات مستغرقة في النصوص الصوفية ولا سيا العطارية منها ، التي تتصل بالحلاج واثاره ، فنتج عن كل ذلك ما نتج والذي نعرفه : دراسة ممتعة في حياة الشيخ الصوفي وتفكيره، يليها نشرقصائده وترجمتها الى الفرنسية ، ووضع معجم للمفردات والاصطلاحات الصوفيـة اعيد طبعه منذ قليل ، وابحاث في مظاهر الحياة الشعبية الفوكلورية وفي السيوكولوجيا الدينية ، ليس فقط في المحيط الاسلامي بل ايضا في المحيط المسيحي . وغاية ماسينيون من كل ذلك الكشف عن مناحي التقارب والتجاوب في النفسية والعقلية بين الشقتين . ولم يحن لنـــا ان ننسى ، في هذا الصدد ، ما بذل من جهد عظيم في تنظيم الزيارات الى اسمير في تركيا ، والى تلك المحلة المجهولة في بريتانيا الفرنسية ، وهما مكانان مقدسان عنده لان اجتهاده دله على ان الاول كان فيه ضريح العذراء ، وعلى ان الثاني يكرم فيه اصحاب الكهف . فما فتىء يترأس هو بنفسه القوافل اليهما وهي تضم ، تحت اشرافـــه وتوجيهه ، ذوي النوايا الطيبة الصالحة من مسلمين ونصارى ، قاصدين الاشتراك ، تحت سماء واحدة ، في صلاة واحدة ترفع الى الاله الواحد .

هذا واننا لا بد ان نذكر الى جانب كل الذي ذكرنا عنايته بالطلبة العرب في باريس ، واهتمامه البالـــغ بشؤون العمال الجزائريين وغيرهم من افريقيا الشمالية المقيمين في اقليم السين في فرنسا . فانـه رتب لهم الدروس الليليـة ، يوجهها ويدير شؤونها ويشترك فيها عمليا هو بنفسه مدة ثلاثين سنة ، حتى قبل وفاته بيوميات . فاننا اذا عرفنا عنه كل ذلك ، مع ما عرفنا من غيره من مآثر وميزات ، استطعنا ان نضبط لانفسنا صورة وافية نوعا ما عما كان عليه لويس ماسينيون ، خلقا وخلقا ، من جبروت وصلابة وعذوبة ونقاوة .

كان في عصرنا المادي المتهالك على الدنيويات والاقتصاديات ، من المجاهدين المرابطين على الثغور التي ينفذ منها عالمنا الى العالم الاعلى ، عالم الحق والروح . اذاً فان شأننا منه في كل ما فعل ، شأننا من مجاهد مرابط ؛ ان يضرب ولا يلوي ، فيصيب تارة وقد لا يصيب اخرى .

فريد جبر